

بحث مقدم للمشاركة
في المؤتمر العالمي الثامن للهيئة
العالمية للإعجاز العلمي في القرآن
والسنة برابطة العالم الإسلامي
الذي تستضيفه
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بدولة الكويت

الإعجاز السني في القرآن الكريم

أ.د. محمد أمخزون
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس-المغرب

المقدمة

لله جلا علاه سنن في هذا الكون يجريها على واقع المجتمعات البشرية وحركة سيرها وتغيرها وتبدلها، كما تجري القوانين الثابتة المطردة في عالم الطبيعة.

وهذا الأمر يؤكد لنا حقيقة بديهية وهي: أن هذا الكون بعالمه المتحرك والجامد، الإنسي والطبيعي، يسير وفق تدبير الحكيم العليم، الذي لم يخلق الخلق عبثا وسدى، وإنما لأجل غايات حكيمة بينها في الوحي المتزل للبشر من خلال الرسل، كما نراها في آفاق هذا الكون الفسيح.

ونحن المسلمين يحق لنا أن نفخر بأن السنن عندنا يقينية؛ لأنها ليست من وضع الإنسان، وإنما نستمدّها من الوحي، من علم الله تعالى المطلق الذي لا يخطئ. وقد بسطها القرآن الكريم، وبيّنتها السنة الشريفة. والمطلوب منا هو السير في الأرض بالبصر والبصيرة لندركها ونفهمها ونعتبر

بها: ﴿قد خلت من قبلك سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾

[آل عمران: ١٣٧].

ووجه الإعجاز في هذا الجانب: أن المفهوم القرآني للسنن الاجتماعية يعتبر فتحا عظيما للقرآن الكريم، لأنه أول كتاب عرفه الإنسان أكد على وجود علاقات وروابط بين الأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج، التي تعد في الحقيقة تعبيراً عن حكمة الله تعالى وحسن تقديره وبنائه التكويني للساحة التاريخية والاجتماعية.

بينما كان الإنسان قديماً يخضع للنظرة العفوية أو النظرية الخرافية الاستسلامية في تفسير الأحداث التاريخية وحركة المجتمع بوصفها كومة متراكمة من الأحداث والوقائع؛ فيفسرها تارة على أساس الصدفة، وتارة على أساس القضاء والقدر بدون إدراك مغزاها الحقيقي، وبدون التمييز بين أمر الله القدري الكوني وأمره القدري الشرعي. كما أن التفسير اللاهوتي الكنسي للتاريخ والمجتمع يتناول الحادثة نفسها، ويربطها بإرادة الله سبحانه وتعالى قاطعا صلتها بقانون الأسباب.

وهكذا لأول مرة في التاريخي الإنساني، نبه القرآن الكريم العقل البشري إلى أن حركة أي مجتمع محكومة بسنن ثابتة وشاملة ومطرودة.

على أن الغربيين المعاصرين وإن اكتشفوا كثيرا من السنن الطبيعية ووظفوها لعمارة الأرض في المجالات العسكرية والمدنية المختلفة. إلا أنهم ذهلوا عن السنن الاجتماعية والتاريخية، ولم يدركوا إلى الآن ولم يفهموا كيف تعمل هذه السنن في واقع المجتمعات البشرية؛ لأنهم قطعوا صلتهم بالوحي، مما جعلهم غير قادرين على فهم حقيقة النفس الإنسانية وطبيعتها ودورها وتشعباتها ووسائل علاجها، ومن ثم لم يحالفهم النجاح في ضبط بنية العلاقات الإنسانية النفسية والمجتمعية في صيورتها. وبالتالي فمنهم من لم يؤمن أصلا بالسنن الربانية وأثرها في المجتمعات البشرية في الماضي والحاضر والمستقبل، ومنهم من يخلط بين السنن الطبيعية والسنن الاجتماعية، ولا يعلم بأن الأولى مجالها الظواهر الكونية، والثانية مجالها المجتمعات الإنسانية.

يقول ألكسيس كاريل: "إن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي؛ لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط. لقد فتنهم جمال علوم الجماد... إنهم لم يدركوا أن أجسامهم ومشاعرهم تتعرض للقوانين الطبيعية (انظر الخلط بينها وبين القوانين الاجتماعية) وهي قوانين أكثر غموضا، وإن كانت تتساوى في الصلابة مع قوانين الدنيا (السنن الكونية)... بذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم"^(١).

أما علماء الإسلام فقد كانوا سابقين إلى الحديث عن السنن وأثرها الحاسم في حياة الأمم والدول، لكن لم يكتشفوها من تلقاء أنفسهم، وإنما استنبطوها من الوحي. ولهذا كان للتوجيهات القرآنية وتعاليمه الحكيمة أثر هام في تشكيل العقل المسلم الذي استطاع بفضل الكتاب والسنة إرساء قواعد البحث العلمي وأصول المنهج التجريبي، وبناء حضارة متناسقة مبدعة استفادت البشرية من عطائها في بناء صرح المدنية إلى حد بعيد.

^١ - الإنسان ذلك المجهول، ص ١١.

الفصل الأول

تنبيه القرآن الكريم إلى صرامة السنن الاجتماعية واطرادها

لقد كان القرآن الكريم أول كتاب في تاريخ البشرية يشير إلى السنن الاجتماعية، فذكرها نصا في مثل قوله تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأَرْضِ فانظروا كيف كان عاقبة المكذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وذكرها تارة مضافة إلى الله تباركت وتقدسست أسماؤه في مثل قوله تعالى ﴿سنة الله التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك الكافرون﴾ [غافر: ٨٥].

وذكرها تارة مضافة إلى أقوام في مثل قوله تعالى: ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولى﴾ [الكهف: ٥٥].

ولم يذكرها الله جل ذكره أحيانا أخرى نصا، وإنما فهمت من النص دلالة وفحوى في مثل قوله تعالى: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [الأنعام: ١٠].

كما نبه جل ثناؤه إلى أن هذه السنن صارمة تتسم بالاطراد والشمول والثبات في مثل قوله تعالى: ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولى، فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله عز من قائل: ﴿سنة من قد أمرسلنا قبلك من مرسلنا ولا تجد لسنةنا تحويلا﴾ [الإسراء: ٧٧].

ويعد هذا السبق القرآني في إرشاد الإنسان إلى وجود قوانين صارمة في المجالات الاجتماعية ذا مغزى في انتباه العلماء المسلمين في العصور الماضية إلى أثر السنن في المجتمعات والاعتبار بها.

يقول البيهقي: "لا توجد حادثة لم يحدث مثلها من قبل"^(١). ويقول ابن الأثير الجزري: "إنه لا يحدث أمر إلا تقدم هو أو نظيره"^(٢). ويقول ابن تيمية: "ومن هذا الباب، صارت قصص المتقدمين

^١ - السخاوي: الإعلان بالتبويخ لمن ذم التاريخ، ص. ٣٣.

عبرة لنا. ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن^(١).

وبصدد اطراد السنن ذكر ابن قيم الجوزية كلاما نفيسا جاء فيه: "... لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة والمعاني المعتبرة في الأحكام القدريّة والشرعية والجزائية، ليدل بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا لما منع يعارض اقتضاءها، ويوجب تخلف أثرها عنها"^(٢).

فالأوصاف والعلل المؤثرة في الأحكام القدريّة والشرعية ليست إلا السنن. فهي ليست عشوائية قائمة على أساس الصدفة، وإنما هي ذات طابع موضوعي، لا تتخلف في الحالات الاعتيادية التي تجري فيها الطبيعة والكون على السنن العامة. بل إن التأكيد على طابع الاطراد في السنة هو تأكيد على الطابع العلمي للقانون الاجتماعي، لأن أهم ما يميز القانون العلمي عن بقية المعادلات والفروض هو: الاطراد والتتابع وعدم التخلف^(٣).

ومن هاهنا أراد القرآن الكريم من خلال تأكيده على طابع الاطراد في السنن التاريخية والاجتماعية: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ [فاطر: ٤٣] الجزم على الطابع العلمي لهذه السنن، بغية خلق شروع لدى الإنسان المسلم، يمكنه من تتبع أحداث التاريخ وحركة المجتمع في جرياتها بصورة واعية بعيدا عن العشوائية والسذاجة والاستسلام والتفسير الخاطئ للقدر.

ولهذا ينبغي معرفة السنن الإلهية وتدبرها والاستفادة منها وتوظيفها في بناء المجتمع المسلم وتربيته وتزكيته لقوله تعالى: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم﴾ [النساء: ٢٦].

^٢ - الكامل في التاريخ، ج. ١، ص. ٨.

^١ - جامع الرسائل، ص. ٥٥.

^٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج. ١، ص. ١٩٦.

^٣ - محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن الكريم، ص. ٦٧.

فمن خلال سنن الله تعالى في كتابه الكريم وسنة نبيه (ﷺ) نعي عوامل البقاء التي تحفظ المجتمع من معاول الهدم والانحلال، وتصونه من التفتت والانهيار، وتباعد بينه وبين الفناء المدمر، حين يصيب الخلل شبكة العلاقات الاجتماعية فيه، إذ إن التوازن الدقيق في وعي المجتمع بين الحقوق والواجبات يتأثر كما يتأثر توازن المركب على سطح الماء.

مع العلم بأن فقه سنن الله تعالى في المجتمع يوّلّد لدى الذين يتمتعون بالوعي إدراكا وشعورا بالخطر من أن يكون المركب الذي يسير به المجتمع يحتوي على نماذج لا تعرف سنة طفو الأجسام على الماء، فيسعون بحسنة نية أو سوء نية لخرق السفينة، كما ورد في الحديث الشريف^(١).

فقد روي عن النعمان بن بشير (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذ استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذي من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"^(٢).

ووجه الإعجاز في هذا الحديث أنه يكشف عن التوازن الدقيق في وعي المجتمع، والذي يتأثر كما يتأثر توازن المركب بحسب قانون الطفو. إن للمجتمع كذلك قانون -سنة- يترابط به ليحميه من الغرق.

ومن خلال السنن الواردة في كتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ) نفهم أيضا التاريخ على حقيقته؛ فنعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والتقدم، ونعرف عوامل الهدم والخوف والانحطاط والتخلف.

على أن هذه السنن مرتبطة بالأمر والنهي، والطاعة والمعصية، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، فالإنسان إذا أتى الأمر واجتنب النهي ووقف عند حدود الله أصاب خير السنة الربانية، وإذا أهمل الأمر وخالفه وارتكب المنهي عنه ووقع في حدود الله أصاب أشر السنة الربانية^(٣).

^١ - جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص. ٦٢.

^٢ - أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الشركة، ج. ٣، ص. ١١١.

^٣ - محمد بن صامل السلمي: كيف نفسر التاريخ، مجلة البيان، عدد ٥٠، ص. ٩٨.

ومن هاهنا تأتي أهمية ربط بناء المجتمع بالاستقامة على منهج الله، والعدل والتراحم، وبذل الجهد والعمل والتضحية، وفق سنن الله التي لا تحابي فردا على حساب فرد آخر، أو مجتمعا على حساب مجتمع آخر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَهُ حَتَّى يَغْيُرُوا مَتَّ بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

فالتائج التي قد يتطلع إليها على وجه الأرض أكثر المؤمنين إيمانا وأشدهم ورعا وتقوى سوف يجنيها أكثر الكافرين كفرا وأشدهم فسقا وفجورا إذا وافق المقدمات الصحيحة المؤدية إليها، وربط الأسباب بمسبباتها، بينما ينتظرها المسلم الذي لم يفهم سنن الله تعالى في خلقه ارتكازا على إيمانه وحده واعتمادا على ورعه وتقواه، دون أن يطلبها من مقدماتها التي خلق الله عز وجل طريقا إليها، فأني يستجاب له! ^(١).

ومرجع ذلك إلى أن السنن الربانية في الحياة البشرية دقيقة كل الدقة، منتظمة أشد الانتظام، لا تحيد ولا تميل، لا تجامل ولا تحابي، ولا تتأثر بالأمان، وإنما بالأعمال المنظمة ذات التخطيط الاستراتيجي بعيد المدى. وهي في دقتها وانتظامها وجديتها كالسنن الكونية أو الطبيعية سواء بسواء. على أن جميع السنن التي فطر الله تعالى عليها أمور الخلق -الطبيعية أو الاجتماعية أو التاريخية- قابلة للتراكم والإعادة -بإذن الله- كلما توافرت شروطها وانتفت موانعها التي تحول دون تحقيقها.

وإذا كانت كل سنة اجتماعية لا تتم إلا من خلال شروط ينبغي توافرها وموانع ينبغي انتفاؤها، فإن هذه الحقيقة العلمية يجب أن تظل ماثلة في أذهاننا كلما أردنا أن نقوم بعمل من الأعمال أو نحقق هدفا من الأهداف.

^١ - محمد عبد الهادي المصري: أهل السنة والجماعة: الانطلاقة الكبرى، ص. ٢٥٨، (بتصرف).

إذ الخطوة الأولى في سبيل تحقيق ذلك هي معرفة السنة الخاصة بهذا العمل أو ذلك الهدف؛ لأن القيام بأي عمل دون معرفة السنة التي يخضع لها يعد ضرباً من العبث وإهدار للطاقة والوقت، وإذا عرفنا السنة علينا أن نهيئ الشروط اللازمة لنجاحه ونتلافى الموانع التي تحول دون تحقيقه^(١).

وهذه هي الطريقة المثلى لتسخير الأفكار بطريقة واقعية ووضعها موضع التنفيذ العملي. وهذا هو العلم النافع الإيجابي الذي يمكن به تسخير العالم المحيط بنا تسخيراً صحيحاً، والاستفادة من كنوزه وخيراته ومعطياته في تصريف شؤون الحياة، وازدهار المجتمعات، وإعمار الأرض على الوجه الشرعي الذي أمر به الله عز وجل.

وهذا هو العلم الذي يحث القرآن الكريم على تحصيله، وذلك من خلال عدد كثير من الآيات الكريمة، حيث وردت كلمة "العلم" يتصرفاتها المختلفة في القرآن الكريم، فيما يزيد عن سبعمائة وخمسين موضعاً، مشفوع معظمها بالدعوى إلى التدبر والتفكير في آيات الله تعالى وسننه على هدى وبصيرة وفقه، وفق المقاييس العلمية الموضوعية المبرأة من التخرص والظن والهوى.

وفيما يلي سنعرض نماذج من السنن الاجتماعية في القرآن الكريم تبين بجلاء أن المجتمعات الإنسانية محكومة بسنن ثابتة صارمة ومطردة، وأن الناس والأمم والدول في سائر تصرفاتهم لا يخرجون عن سلطانها؛ فلا تنال أمة مرغوبها أو تسلم من مرهوبها إلا وفق هذه السنن وعلى هدى منها.

وحيثما فقه المسلمون الأوائل سنن الله في الآفاق والأنفس والمجتمعات على هدى من كتاب رهم وسنة نبهم (ﷺ)، كان وضع المجتمع الإسلامي في مكان الصدارة والريادة، يوم أن كان العلم بأوسع معانيه هو الموجه له، فطاف برحابة عقله وإمعان فكره ودقة نظره آفاق السموات والأرض والأنفس نظاراً باحثاً يستشف الحقائق الكونية من وراء السجف، يكشفها له القرآن العظيم ويهديه لأصولها وماهياتها بأسلوب معجز، ومعاني جديدة لم يسبق إليها أحد.

^١ - أحمد كنعان: أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، ص ٦٦-٦٧، (بتصرف).

الفصل الثاني:

سنة التغيير

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

توطئة:

لقد نشأ النبي (ﷺ) في أمة أمية غلب عليها طابع القبلية والعصبية، لا تعرف شيئا عن أساليب تغيير الواقع الاجتماعي، منغمسة في أتون الفتن والفرقة والانقسام، بل وحتى الأمم المتمدنة المجاورة للعرب كفارس والروم، لم يكونوا يعرفون شيئا عن آليات وطرق تغيير المجتمعات، معتقدين أن التغيير في العادة يأتي من القيادات إلى الشعوب، وأنه لا سلطان للمجتمعات في تغيير واقعها من سيء إلى حسن.

فجاء الكتاب العزيز بأفكار جديدة على الفكر البشري في هذا الشأن، إذ بين الله عز وجل أن تغيير الواقع يأتي من داخل المجتمعات والأقوام بتغيير ما بأنفسهم؛ فالله تعالى لا يغير واقع مجتمع أو أمة حيث يبدأوا هم فيغيروا ما بداخل أنفسهم من مفاهيم وأفكار، ويغيروا نظرتهم إلى الكون والإنسان والحياة، ويصلحوا أحوالهم، ويلملموا جمعهم، ويتعاطوا الحقوق فيما بينهم، فيغير الله تعالى آنذاك ما بهم، فيبدلهم بعد ذل وضعف قوة، وبعد شدة رخاء، وبعد فقر غنى وسعة.

كما أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بالأمم والأقوام من أمن ونعمة ورخاء حتى يغيروا ما هم متلبسون به من طاعة وإحسان؛ فلا يسلبهم نعمة أنعم بها عليهم حتى يحدثوا تغيير ما بهم من خير وهداية واستقامة إلى شرور وآثام ومنكرات: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مَغْيِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

سنة التغيير سنة اجتماعية نفسية

هاهنا عدة أمور ينبغي التنبيه إليها:

الأمر الأول: إن السنة الموجودة في الآية الكريمة سنة عامة تنطبق على كل البشر، بدليل أن كلمة "قوم"، ومجيئها نكرة في الآية يدل على هذا^(١).

الأمر الثاني: إن الآية الكريمة تبين أن هذه السنة اجتماعية لا فردية. إذا فالحديث عن قوم، عن مجتمع له خصائصه بما يشمل من الرجال والنساء، والصغار والكبار. فمضمون الآية الكريمة ليس محاسبة الأفراد، وإنما محاسبة المجتمع، وتغيير ما بالمجتمع على أساس العمل الجماعي^(٢).

الأمر الثالث: إن الغاية المستفادة من "حتى" هي غاية متسعة؛ لأن المجتمعات إذا غيرت ما بأنفسها من هدى الله، أمهلها سبحانه وتعالى زمناً، ثم أرسل إليها الرسل، ثم أمهلها مدة لتبليغ الدعوة إليها، فإذا أصرت على الكفر غير الله عز وجل نعمته عليها بإبدالها بالعذاب أو الذل أو الأسر أو نقص في الأنفس والأموال والثمرات^(٣).

الأمر الرابع: ما ورد في سورة الأنفال من استبدال كلمة "ما" في سورة الرعد بكلمة "نعمة" يدل على التعميم والتخصيص؛ إذ إن كلمة "نعمة" أخص من كلمة "ما"؛ لأن كلمة "ما" تشمل النعم والنقم، بينما كلمة "نعمة" خاصة بالنعمة، لكنها مع ذلك عامة في جميع أنواع النعم، لاسيما وأنها جاءت نكرة. فكلمة "نعمة" تشمل: الصحة والقوة والغنى ونجاة الأولاد ونظافة المساكن والتماسك الاجتماعي والمحبة والمودة والإخاء والتعاون... إلخ^(٤).

الأمر الخامس: إن التغيير الذي ينبغي أن يحدث أولاً: هو التغيير الذي جعله الله عز وجل مهمة المجتمع وواجبهم، وإن حدوث أي قهوان في الخلط بينه وبين التغيير الذي يخص الله جل ذكره يفقد هذه السنة فعاليتها وفائدتها. والرجاء بأن يحدث الله تعالى التغيير الذي يخصه قبل أن يقوم المجتمع بمهمة التغيير التي أناطه الله عز وجل به، يفضي إلى إبطال دور الإنسان ومكانته ومسؤوليته، وما منحه الله سبحانه من مقام الاستخلاف في الأرض^(٥).

^١ - جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص. ٥١.

^٢ - المرجع نفسه، ص. ٥٩، ٦٤.

^٣ - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج. ١٠، ص. ٤٥.

^٤ - جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص. ٧٢ (بتصرف).

^٥ - المرجع نفسه، ص. ٦٧.

الأمر السادس: إن سلوك الإنسان وتصرفاته هي نتيجة لأفكاره، وتعبير أدق لما بنفسه. فإذا تغير ما بنفس الإنسان سواء كان بمجهده أو بجهد غيره، فإن سلوكه لا محالة يتغير. وهذا التغير يمكن أن يصل إلى درجة النقيض، كأن يتحول الإقدام إلى إحجام أو الشجاعة إلى جبن أو السرور إلى حزن، والعكس الصحيح. فإذا تغير ما بالنفس تغير حالاً سلوك الإنسان، ولا يعود يملك سيطرة على قواه، ويخضع خضوعاً كاملاً لما حل بنفسه. فمن يملك القدرة على تغيير ما بالنفس يملك أن يغير ما بالقوم^(١).

ولازالت سياسة الدول في القديم والحديث تركز على المهارة في معرفة نفسية الشعوب والأمم وتاريخها لتكييف مواقف الأفراد والجماعات في بلوغ أهدافها. وعلى سبيل المثال، فقد ربط الغرب ضرورة الاحتلال للبلدان الإسلامية بتفوقه في معرفته لها، لا بالقوة العسكرية أو الاقتصادية بالدرجة الأولى. والمعرفة في رؤيته تعني المسح الكامل لحضارة ما من أصولها الأولى إلى ذروتها ثم انحطاطها، لمعرفة نقط الضعف والقوة فيها.

شروط سنة التغيير:

- العقيدة السليمة.
- النواة الصلبة المؤثرة.
- الزمان الكافي لإنضاج عملية التغيير.
- فهم الواقع.

موانعها:

- الانحراف في مفاهيم العقيدة.
- الانفرادية.
- ضعف الفعالية وحمود المهمة.
- قلة الاكتراث بالوقت.

^١ - المرجع نفسه، ص. ١١٩، ١٢٢ (بتصرف).

الفصل الثالث

سنة المداولة

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلَهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

المداولة مبنية على أعمال الناس

إن القرآن الكريم يطرح قاعدة أساسية في موقفه إزاء الدول والأمم والتجارب البشرية بصفة عامة، إذ بواقعيته وإحاطته المعجزة يقرر منذ البدء عدم ديمومة أي من هذه المعطيات، ولا يستثني منها الإسلام والمسلمين، إذ تقوم هذه السنة التي لا محيص عنها على أسبابها ومقدماتها في صميم الفعل الإنساني نفسه^(١).

والآية وإن كانت تخاطب المسلمين إلا أنها استعملت كلمة الناس أي البشر كلهم، لأن هذا من السنن العامة، فلا تختص بالقوم المتحدث عنهم^(٢).

وعلى هذا النحو فمداولة الأيام سنة من سنن الاجتماع البشري، فلا غرو أن تكون الدولة مرة للمبطل ومرة للمحق. لكن العاقبة في نهاية المطاف للمتقين، كما جاء في حديث أبي سفيان عندما سأله هرقل ملك الروم عن قتالهم للنبي (ﷺ) فأجاب: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، فقال هرقل: وكذلك الرسل تبتلئ ثم تكون لها العاقبة^(٣).

والمداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس، فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافاً، وإنما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها^(٤).

وفي الآية من الإيجاز والإعجاز وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ما لا يعهد مثله في غير القرآن الكريم؛ فكأنها تقول للمسلمين: إذا كانت الدولة منوطة بالأعمال التي تفضي إليها:

^١ - عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص. ٢٥٦.

^٢ - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج. ٤، ص. ١٠٠.

^٣ - أخرجه الإمام البخاري في كتاب الجهاد والسير، ج. ٣، ص. ٢٠٥.

^٤ - رشيد رضا: تفسير المنار، ج. ٤، ص. ١٤٨.

كالائتلاف، والثبات، وصحة النظر، وقوة العزيمة، وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطيع من قوة، فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتحكموها أتم الأحكام لتكون العاقبة لكم، ويقوم بذلك العدل ويستقر النظام^(١).

لقد كان الله تعالى يربي الجماعة المسلمة، وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية، فرباها بالابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المريعة بعد الابتلاء بالنصر المؤزر. وإن يكون هذا وذاك قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة، وأنه لا محابة في المداولة، فلتزيد هذه الجماعة طاعة لله عز وجل، وتوكلا عليه، ولتأخذ كامل الأهبة لخوض المعركة: معرفة وتربية وتخطيطا وتنظيما، ولتعرف طبيعة منهج هذا الدين وتكاليفه معرفة اليقين^(٢).

ارتباط المداولة بالتغيير النفسي في الأمة

وهذه السنة -مداولة الأيام بين الناس من الشدة إلى الرخاء، ومن الرخاء إلى الشدة، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن الهزيمة إلى النصر- نافذة بحسب ما تقتضيه سنة تغيير ما بالأنفس: ﴿ذلك بأن الله ليك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الأنفال: ٥٢].

وها هنا يضع الله عز وجل أيدينا على سر عظيم، وهو ارتباط المداولة بين الأمم والدول والمجتمعات بالتغيير النفسي والذاتي في الأمة؛ فسقوط الحضارات ونهوضها، والأمم في ارتفاعها وهبوطها، مرتبطة بهذا التغيير النفسي في مسارها عبر التاريخ والحاضر والمستقبل، وهي سنة ماضية ثابتة، لا تتبدل ولا تتحول.

يقول رشيد رضا -رحمه الله- في تفسيره: "... إن أنعم الله تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداء ودواما بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها، فمادامت هذه الشؤون لاصقة بأنفسهم متمكنة منها، كانت تلك النعم ثابتة بثباتها، ولم يكن الرب الكريم ينتزعها منهم

^١ - المصدر نفسه، ج. ٤، ص. ١٤٨.

^٢ - سيد قطب: في ظلال القرآن، ج. ١، ص. ٨٤١ (بتصرف).

انتزاعا بغير ظلم ولا ذنب، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتب عليها من محاسن الأعمال غير الله عندئذ ما بأنفسهم وسلب نعمته منهم" (١).

وسلب النعم يكون بالإدالة عليهم؛ بتسليط عدو عليهم يستأصل شأفتهم، ويكون ذلك سببا في انهيارهم وزوال ملكهم جزاء فسقهم وعصيانهم.

ومن أسباب الفتن وزوال النعم أن يفشو فيهم الظلم، وعدم إقامة العدل، والجهل بالمعاصي، فيأخذهم الله عز وجل بالسنين وشدة المؤنة، ويبتليهم بالأمراض والفقر، ويجعل بأسهم بينهم.

أخرج ابن ماجه بسنده إلى عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: إن رسول الله (ﷺ) أقبل علينا بوجهه فقال: "يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواغيت والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم" (٢).

هكذا عمل السنن، ما فعل قوم كذا إلا أصيبوا بكذا. إذا فكل ما يصيب العباد من المصائب والنكبات كالفتن والأمراض والجذب والحروب وظلم الحكام فهو نتيجة أعمالهم، إذ هو عقوبة طبيعية لما كسبت أيديهم.

المدأولة وسيلة للتجدد وتحريك الفعل التاريخي

قد تكون الإدالة على المسلمين بتخلف النصر عنهم حين يتركون طاعة الرسول (ﷺ) أو يطمعون في الغنينة - كما حدث في غزوة أحد - أو حين يركنون لكثرة العدد ويعجبون بأنفسهم وينسون سندهم الأصل - كما وقع في غزوة حنين - . وحينئذ تكون الدولة والغلبة لغيرهم بصفة مؤقتة لحكمة هي: استكمال حقيقة الإيمان ومقتضاه من الأعمال، ومتى تحقق ذلك جاء النصر.

^١ - رشيد رضا: تفسير المنار، ج. ١٠، ص. ٤٢.

^٢ - أخرجه ابن ماجه في السنن، رقم ٤٠٣٩، ج. ٢، ص. ١٣٣٢. والحاكم في المستدرک وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، ج. ٤، ص. ٥٤٠، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، ج. ١، ص. ١٦٧.

ويطرح القرآن الكريم سنة المداولة كفعل ديناميكي يستهدف تمحيص الجماعات البشرية، وإثارة الصراع الدائم بينها لمصلحة الإنسانية في خضم المواجهة بين الحق والباطل، الأمر الذي يتمخض عنه تحريك الفعل، وخلق التحديات المستمرة أمام المنتمين إلى هذا المذهب أو ذاك، مما يوحي بالحركة الدائمة، وبالتجديد، وبالأمل، تقريراً أن الأيام ليست ملكاً لأحد، ومن ثم لا داعي لليأس والهزيمة. فمن في القمة الآن ستزل بهم حركة "الأيام" إلى الحضيض، ومن هم في القاع ستصعد بهم الحركة نفسها - من خلال فعلهم الحر وحركتهم الدائبة - إلى القمة^(١).

إن المداولة القرآنية سنة جارية إيجابية في صيرورتها: حركة دائبة، وصراع فعال، واستمرار الأمل البشري الذي يرفض الحزن والهوان حين يكون مشدوداً إلى عقيدة، منصهراً بقوة الإيمان: ﴿ولا تنهوا ولا تخزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وفي هذا إيقاظ للضمان المؤمنة الحية لتثمر عن ساعد الجد، وتسعى لاحتواء الأوضاع لصالحها؛ لأن طبيعة الإنسان كلما كان ذا إرادة أقوى، وعزيمة أعمق، وإيمان أعمق، وجهد وإبداع أشد تركيزاً، كلما أتيح له أن يقفز قفزات هائلة لارتياح مزيد من المجاهيل في الطبيعة والعالم، حيث توصي حركية المداولة بالتجديد واليقظة والفاعلية التي ترفض السكون والجمود، الأمر الذي ينتج عن تحريك الفعل التاريخي، والانطلاق نحو الوعي الحضاري الإيجابي الذي يمكن من استعادة الذاتية الحضارية والمحافظة عليها من الاضمحلال والسقوط^(٢).

ولكن ينبغي أن يعرف بأن المداولة في الواقع مبنية على أعمال الفريقين المتصارعين، فتكون الغلبة لمن أدرك قانونها، وعرف أسبابها، ورعاها حق رعايتها. فإذا كانت المداولة في النصر والغلبة بين الفريقين منوطة بالأعمال التي تفضي إليها: كالاتِّصاف والألفة والوحدة وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما يقدر عليه من القوة، فعلى المؤمنين أن يقوموا بهذه الأعمال ونحوها من مستلزمات الغلبة والنصر حتى تكون المداولة لهم ويحسم التدافع لصالحهم^(٣).

^١ - عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ص. ٢٥٩ (بتصرف).

المراجع نفسه، ص. ٢٥٦-٢٥٩ (بتصرف).

^٣ - رشيد رضا: المصادر السابق، ج. ٤، ص. ١٤٨.

شروط السنة

- إدراك وفقه الواقع الإقليمي والعالمي.
- الاستعلاء بالإيمان.
- الألفة والوحدة والاجتماع على الحق.
- تجدد المجتمع.
- رفع راية الإسلام لتكون كلمة الله هي العليا في الأرض.

موانعها

- الركود الحضاري.
- الأزمة القيمية.
- التفكك الاجتماعي.
- ضعف التفكير السببي.
- العجز والشعور بالدونية وعدم بعد النظر.

الفصل الرابع

سنة التدافع

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

التدافع صور متعددة تمنع الفساد في الأرض

جاء في لسان العرب: "الدفع" الإزالة بالقوة^(١). وفي المعجم الوسيط: "دفع الشيء إذا نحاه وأزاله بقوة"^(٢). والتدافع بين الحق والباطل هو تنحية أحدهما للآخر أو إزالته ونحوه بالقوة عند الاقتضاء^(٣).

لكن هذا المعنى يمثل الصورة الأخيرة للتدافع التي تأتي بعد سلسلة من المراحل، إذ يحتمل التدافع عدة معان: فهو وسيلة للحياة والحركة والنمو وانطلاق الطاقات. وله صورته ودرجاته المتعددة بداية من الحوار ومرورا بالجدل والمناظرة والمنافسة والسباق والمواجهة والمغالبة وانتهاء بالصراع أو القتال. وكل هذه الصور مشروعة، كما أنها في نفس الوقت محكومة بضوابط من شرع الله^(٤). علما بأن المدافعة التي تبني ولا تهدم تشكل حجر الزاوية في تقدم الإنسانية وبقائها.

ويشير صاحب الظلال - رحمه الله - إلى أن مساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات، ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة التي تمسك بالخيوط جميعا، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المسابق إلى الخير والصلاح والنماء في نهاية المطاف. لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتغنن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عز وجل عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنتلق الطاقات كلها

^١ - ابن منظور: لسان العرب، ج. ٩، ص. ٤٤١.

^٢ - المعجم الوسيط، ج. ١، ص. ٢٨٩.

^٣ - عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية، ص. ٤٥.

^٤ - مجدي قرقر: التدافع الحضاري بديلا عن الصراع، مجلة المنار الجديدة، عدد ١٧، ص. ٦٢.

وتتراحم وتتغالب وتتدافع، فتتنفض عنها الكسل والخمول... مستنبطة لذخائر الأرض، مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء^(١)... فإن الله لذو فضل على العالمين.

الحديد وسيلة للتدافع في السلم والحرب

منذ خمسة عشر قرنا بين القرآن أهمية الحديد القصوى في الحرب والسلم معا، بينما لم يكن للحديد في ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن الكريم هذه الأهمية التي له في عصرنا، بسبب الاستعمال الواسع له في مختلف القطاعات الحيوية، حتى غدا وسيلة استراتيجية في ميادين القوى الدولية سلما وحربا.

ذلك أن الدول المعاصرة التي تملك هذا الخام الخطير بمقدورها إرهاب أعدائها بما يتيح لها من مقدرة على التسلح الثقيل، كما أنه أصبح العمود الفقري للتقدم في ميادين السلم والصناعات المدنية^(٢): «**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد منافع للناس**» [الحديد: ١٢٥].

وتكاد الحضارة المعاصرة تقوم على الحديد، مما يبرز أن الله تعالى الذي نزل هذا الكتاب المعجز في بيانه وفي دلالاته ومعانيه محيط بكل شيء، بما كان وبما سيكون، وأنه ليس في مقدور بشر مهما توقد ذكاء وكان ألمعا أن يتنبأ بهذا الأمر، فضلا عن أن يحيط به.

ألم تؤكد سورة الحديد اعتماد هذا الخام الخطير في ميادين الحرب والسلم دونما تحديد ملزم لطرائق الاعتماد وصيغته، ليبقى الإنسان حرا طليقا بتحريكه القوى والطاقات الممنوحة، واستغلال حواسه في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب، وفتح هذه النوافذ على مصراعيها لاستغلال قدرته الفذة حتى النهاية؟! ^(٣).

^١ - سيد قطب: المصدر السابق، ج. ١، ص. ٢٧٠.

^٢ - إبراهيم الوزير: دراسة للسنة الإلهية، ص. ١٢٠-١٢١.

^٣ - المرجع نفسه، ص. ١٢٠.

وهل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض واستغلال ذخائرها وكنوزها من تسمية سورة كاملة باسم خام من أخطر وأهم خاماتها؟!^(١).

وهل ثمة أكثر بياناً لترعة التحضر والإبداع والبناء التي جاء القرآن العظيم ليَجعلها جزءاً رئيساً من أخلاقيات هذا الدين وسلوكيته في صميم العالم، من هذه الآية الكريمة التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله تعالى لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً من الحديد: "البأس الشديد" تمثلاً باستخدام الحديد كأساسات للتسلح والإعداد العسكري، و"المنافع" التي يمكن أن ينتفع بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه المدني^(٢)؟!؟

أدوات ووسائل التدافع

وجدير بالإشارة أن للتدافع أدوات ووسائل من لا يستعملها يخر صريعاً؛ فكل من يريد أن يبني مجتمعاً أياً كان هذا المجتمع وأياً كان مثله الأعلى، إن لم يسر على السنة الربانية، وإن لم يعرف شروطها وموانعها، فلن يتمكن من إقامة مجتمع، ولن يتمكن من بناء حضارة، ولن يتمكن من حماية كيانه من غوائل الأعداء.

فسنة عداوة الأشرار للأخيار هي ما يعبر عنه علماء الاجتماع "بقانون تنازع البقاء بين المتقابلات أو الأضداد"، وهو ما يفضي بالتدافع والجهد والتمحيص إلى ما يسمونه قانون "الانتخاب الطبيعي" أي انتصار الأقوى وبقاء الأصلح. وهو ما يطلق عليه القرآن الكريم "الحق" و"النافع" كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] ^(٣).

ولكن -للأسف- فإن أكثر المسلمين في هذا العصر يجهلون هذه السنة الحكيمة وشروطها وموانعها، ويشتبها عليهم فهمها وتطبيقها على أنفسهم ظانين أن مجرد تسميتهم مسلمين كافٍ ليتزل عليهم نصر الله، وإن خالفوا سنته بانحرافهم عن منهج القرآن وشريعته، وكسلهم وفرقتهم، وترك

^١ - المرجع نفسه، ص. ١٢٠.

^٢ - المرجع نفسه، ص. ١٢٠.

^٣ - رشيد رضا: تفسير المنار، ج. ٢، ص. ٤٩٧، ج. ١٠، ص. ١٣٧.

مصدر القوة من: المعرفة والإعداد والوحدة والتخطيط والنظام والإبداع، وغير ذلك من العوامل التي تحقق كمال الاستعداد لتوظيف هذه السنة على أكمل وجه.

شروط السنة

- بناء المعرفة.
- بناء القوة.
- وضوح الأهداف الكبرى.
- التصميم على محاربة الرذيلة والفساد في الأرض.
- بسط لواء العدل والفضيلة.

موانعها

- افتقاد القيادة القوية الرشيدة.
- الاختلاف والفرقة.
- مقاومة التغيير.
- إلف حياة الاسترخاء والترهل.
- فقدان الثقة بالنفس.

الفصل الخامس

سنة الأضداد

قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ

كَالْفَجَارِ﴾ [ص: ٢٨]

التفرقة بين المصلحين والمفسدين

المراد بالأضداد المختلفين في المعاني والأوصاف التي هي مناط الأحكام أو التي تستوجب نتائج معينة حسب سنن الله تعالى العامة^(١).

والله عز وجل، كما يجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة فيحكم في الشيء خلقا وأمرًا بحكم مثله، فإنه يفرق كذلك بين الأمور المتضادة المختلفة، فلا يسوي بين شيئين غير متماثلين، بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسو بينهما^(٢).

ولذلك قال جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ

وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

ووجه الإعجاز في هذه السنة أن الله تعالى بين أن هناك صلة بين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت. كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل والحياة^(٣).

فالإيمان ظل ظليل تستروحه النفس، ويرتاح له القلب، وهو حياة في القلوب والمشاعر، وفي القصد والاتجاه، وبصيرة ترى الأشياء على حقيقتها رؤية صادقة غير مضطربة، وهو نور ينير درب السالكين إلى الله عز وجل. وأما الكفر، فهو عمى في البصر والبصيرة، وظلمة تعز فيها الرؤية

^١ - عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية، ص. ١٦٣.

^٢ - ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج. ١٣، ص. ١٩.

^٣ - سيد قطب: في ظلال القرآن، ج. ٥، ص. ٢٩٣٩ (بتصرف).

الصحيحة، وهاجرة تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على طريق، وعدم الاطمئنان إلى نشأة أو مصير، بل هو موت في الضمير وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل^(١).

وهذه الأمور يدركها بفضل الهداية الربانية ونور الوحي كل من له بصيرة إيمانية ورجاحة عقل، يكشف بها حقائق الأشياء والقيم والأحداث، ويرى بنور الله تعالى حقيقة الوجود وحقيقة الارتباطات فيه، والنسب بين مختلف أبعاده.

العبرة بالحكم على ماهية الأشياء لا على مظهرها

والمراد بهذه السنة أيضا: بيان قيمة العباد في ميزان الله تعالى، ورجحان كفة المؤمنين أصحاب العمل الصالح، وضياح سعي الكافرين وإن كان خيرا؛ بتقديمهم أعمالا حسنة بذاتها أو نافعة للناس، لكنها لا تقوى على محو جريمة كفرهم وتمردهم على الله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ [الفرقان: ٢٣].

فلا يمكن إذن أن يساوى الكافر بالمؤمن الذي عنده الإيمان بالله تعالى، وإن لم يتيسر أن يعمل خيرا كثيرا، فيبقى المؤمن ومعه حسنة الإيمان أرجح دائما من الكافر وإن عمل شيئا حسنا مادام بقي كافرا. فلا مساواة دائما وفي جميع الأحوال بين النقيضين^(٢).

على أن السنة العامة في الاختلاف في النتائج والأحكام تفضي إلى أن المختلفين بالمعنى الذي تم بيانه آنفا يختلفون في النتائج والأحكام في الدنيا والآخرة، لاختلافهم في المعاني والأوصاف التي نيطت بها هذه النتائج والأحكام أو استوجبتها^(٣).

فالعبرة بالحكم على ماهية الأشياء، إذ تنتفي في سنة الله تعالى المساواة بين الأنواع المتضادة المختلفة: الخبيث والطيب من الأشياء والأعمال والأموال، والفساد والصالح، والحلال والحرام، ولا يستوي الخبيث والطيب من الناس كالظالم والعاقل، والمفسد والمصلح، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلكل حكم يجري عليه ويناسبه؛ إذ العبرة بصفة الشيء وما هو عليه من خبث أو طيب، ولا

^١ - المرجع نفسه، ج. ٥، ص. ٢٩٣٩.

^٢ - عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية، ص. ١٧٥.

^٣ - المرجع نفسه، ص. ١٦٣.

قيمة في ميزان الله لمظهره أو شكله، فلا يغتر الإنسان العاقل المعتبر بكثرة المال الخبيث، ولا بكثرة أهل الباطل والفساد، فالعاقبة للتقوى، والبقاء للأصلح: ﴿فلا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا الله يا أُولِي الْأَلْبَابِ لعلكم تفلحون﴾ [المائدة: ١٠٠].

شروط السنة

- العبرة بالحكم على ماهية الأشياء لا مظهرها.
- معرفة قيمة العبد في ميزان الله تعالى.
- اختلاف أحكام المؤمن والكافر في الدنيا والآخرة لاختلافهم في المعاني والأوصاف.
- رجحان كفة أصحاب العمل الصالح في الدنيا والآخرة.

موانعها

- عدم التفرقة بين المسيئين والمحسنين.
- جعل الكفار المفسدين أكفاء للمؤمنين الكافرين.
- اتباع الهوى والتخرس والظن في الحكم على الناس والأشياء بعيدا عن شريعة الله تعالى.
- المساواة في الحكم بين الأنواع المتضادة والمختلفة.

الفصل السادس

سنة التماثل

قال تعالى: ﴿أَنْ جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]

وقال تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]

من المعلوم أن التماثل في تعريف علماء الاجتماع الغربيين هو: تغيير السلوك حتى يتناسق مع سلوك آخر^(١). وله علاقة بعلم النفس الاجتماعي، وهو تخصص بلغ شأواً بعيداً في الغرب بتحليله للظواهر الاجتماعية، وكشفه عن أسبابها والعوامل المؤثرة فيها.

ومع أن هذا العلم معاصر، رسى في الغرب بفعل التجارب المختبرية والدراسات الميدانية، فإن القرآن الكريم الذي نزل على محمد (ﷺ) النبي الأمي الذي نشأ في أمي أمية، يتحدث عن هذه الظاهرة الاجتماعية منذ خمسة عشر قرناً.

التماثل في الطباع يؤدي إلى التفاعل في السلوك

التماثل في القرآن الكريم والسنة الشريفة هو إنتاج سلوك مشابه لمصدر التأثير سواء كان هذا المصدر شيطانياً، أو سلطةً، أو مجتمعاً. وهو سلوك اختياري يحظى بالموافقة والرضا والرغبة، لأن المتماثلين عادة تتشابه قلوبهم في التصور والتركيب النفسية، ولديهم جميعاً قابلية للشر والفساد.

وسنته تعالى ما هنا عاداته التي يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الحاضر أو الماضي الذي وقع قبله. وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة. ولهذا قال تعالى: ﴿أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَمْ﴾ [الرحمن: ٤٣]، وقال جل ثناؤه: ﴿احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَنْزُوا جَهَنَّمَ﴾ [الصفات: ٢٢]، أي أشباههم ونظائرهم^(٢).

^١ - كنيث جرجين: علم النفس الاجتماعي، ص. ٤٥٨. وجون ليفين ومارك بافلشاك: التماثل والإذعان، ص. ٢٦. ضمن كتاب علم النفس الاجتماعي، بإشراف ونشر سيرج موسكو فيشي في باريس عام ١٩٨٤م، والكتابان باللغة الفرنسية.

^٢ - ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج. ١٣، ص. ١٩ وما بعدها.

وفي الحديث الشريف: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شرا بشرا وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى، قال: فمن!". وفي رواية أخرى: "لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمي بأخذ القرون قبلها شرا بشرا وذراعا بذراع، فقليل يا رسول الله؛ كفارس والروم، فقال ومن الناس إلا أولئك؟!"^(١).

وقد جرت سنته تعالى في التناسب بين أنواع المخلوقات المتجانسة والمتشاكلة: أن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن أولياء لشرار الإنس، وهم الكفار الذين لا يؤمنون بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله. كما مضت سنته تعالى أن جبل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشيعين المتشاهمين. فكلما كانت المشاهدة أكثر في النفوس، فإن التفاعل في الأخلاق والصفات يكون أتم.

ولما كان من جبلة الشياطين حب ما هو فساد، وكان من قدرة الإنسان وكسبه أنه قد يلبس الأمر العائد بالفساد إذا كان له فيه عاجل شهوة أو شبهة، كان الإنسان في هذه الحالة موافقا لطبع الشياطين ومؤثرا بما تزينه له، ثم يغلب كسب الفساد والشر على الذين توغلوا فيه وتدرجوا إليه، حتى صار المالك لإرادتهم. وتلك مرتبة المشركين والكافرين، إذ نشأت بينهم وبين الشياطين مماثلة ومشاكلة مآلها ولاية ووافق لتقارب الدواعي والاستعدادات، فبذلك انقلبت العداوة التي في الجبلية ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ [الأعراف: ٢٤]، فصارت ولاية ومحبة عند بلوغ بني آدم آخر دركات الفساد، وهو الشرك والكفر وما يترتب عليهما عياذا بالله^(٢).

لدى شياطين الإنس والجن قابلية لتبادل الإيحاءات الشريرة

وعبارة: "إن جعلنا الشياطين"، وإسنادها إلى الله تعالى لا يقتضي أنه جعل هذا الأمر خارجا عن نظام الأسباب والمسببات، ونتائج الأعمال الاختيارية التي تسند إلى مكتسبها باعتبار صدورها منهم، بدليل أنه تعالى ربط السبب بمسببه، وأسند الولاية إلى مكتسبها بمزاولة أسبابها في قوله في السياق نفسه: "إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون"^(٣).

^١ - أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، ج. ٨، ص. ١٥١.

^٢ - الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج. ٨، ص. ٨٠-٨١.

^٣ - رشيد رضا: تفسير المنار، ج. ٨، ص. ٣٧١.

فاكتساب الكفار لولاية الشياطين -وفقا لهذه السنة- يرجع إلى استعدادهم لقبول وسوستهم وإغوائهم، وعدم احتراسهم من الخواطر الباطلة أو الشريرة التي تلم بهم، كإكتساب ضعفاء البنية للأمراض باستعدادهم لها، وعدم احتراسهم من أسبابها وعللها، كالقذارة وتناول الأطعمة أو الأشرية الفاسدة أو القابلة للفساد، لما فيها من جرائم تلك الأمراض^(١).

بل إن الانسجام والتجاذب بين شياطين الإنس والجن يحصل لما يحدث بينهم من الإيحاءات المتبادلة في تلبيس الحقائق ورفع الشعارات الخادعة لإغواء عامة الناس: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ [الأنعام: ١١٢].

إن هذه السنة وما ينطوي فيها من: مشاكلة ومشاهدة الشياطين، واتخاذهم أولياء، والإصرار على الضلال، وعدم تأثير دلائل الإيمان وموجبات الهدى في الأبواب هي مقدمات للتجانس بين شياطين الإنس والجن، ثم يأتي الطبع على قلوب الذين لا يؤمنون نتيجة حتمية، إذ صار الكفر صفة لازمة لهم: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ [الأعراف: ١٠١].

وعلى هذا النحو؛ بحسب سنة الله في أخلاق البشر وشؤونهم، فالذين أنسوا بالكفر وأعماله حتى تستحوذ أوهامه على مشاعرهم، ويملاً حب شهواته جوانب قلوبهم، لا يقبلون فيه بحثاً، ولا يسمعون فيه نقداً، فيكون كالسكة التي طبعت في أثناء لين معدنها بصهره وإذابته ثم جمدت، فلا تقبل نقشا آخر^(٢).

شروط السنة

- التجانس والتجاذب في الأفكار والتصورات.
- التشابه في التركيبة النفسية.
- التفاعل في الأخلاق والصفات والمواقف.

^١ - المصدر نفسه، ج. ٨، ص. ٣٧٢.

^٢ - المصدر نفسه، ج. ٩، ص. ٢٩.

موانعها

- عدم اتخاذ أولياء من دون الله تعالى.
- تفعيل مفهوم البراء اعتقادا وعملا.
- الاحتراس من الخواطر الباطلة والأفكار الهدامة.
- الاعتصام بالله تعالى وكتابه وسنة نبيه (ﷺ).

الخاتمة

إن السنن عادات الله تعالى وكلماته التي لا مبدل لها في الكون، وهي مستخلصة من سلوك الظواهر نفسها المتسمة بالاطراد والشمول والثبات والصرامة.

فالقرآن الكريم يحدد سياقات اجتماعية واقعية في إطار القصص القرآني ليستخلص بعد ذلك سننا عامة وخاصة تنطبق على جميع المجتمعات البشرية. ومن خلالها يحدد منهجا للنظر والاستقراء والاستدلال تحليليا علميا موضوعيا، عبر الماضي والحاضر والمستقبل.

وهذه المعالجة الشاملة دليل على الإحاطة المعجزة من كل جوانب الوجود.

إن السنن بصفة عامة سواء كانت كونية (طبيعية) أو بشرية (تاريخية، اجتماعية) لها خصائصها، أي أنها ربانية المصدر، شاملة، ثابتة، مطردة، صارمة، متنوعة. كما أنها مرتبطة أشد الارتباط في وحدة نظامية متسلسلة يأخذ بعضها برقاب بعض، حيث تتماسك في اتساق وترتيب محكم، لتكون في النهاية نظاما متناسقا بديعا.

وفي ضوء ما سبق نستخلص أن معرفة نظام السنن بصورة صحيحة من خلال نصوص الكتاب والسنة هو الطريق الوحيد المأمون إلى:

*الإيمان بعلم الله تعالى الشامل المحيط الذي لا يعتريه خطأ ولا يشوبه نقص.

*إدراك أن الزمان هو الوعاء الذي تعمل فيه السنن. ونظرا لديمومتها وثباتها واطرادها، فهي بذلك تستغرق حياة البشرية كلها؛ في الماضي والحاضر والمستقبل إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. وهي بتجسيورها للعلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، جعلت في إمكان الإنسان أن يعرف المسببات من خلال الوقوف على الأسباب، ويستخلص النتائج من خلال رؤية المقدمات، أي جعلت الأزمنة كتلة واحدة، فأمنت بذلك نوعا من التواصل عبر حقب الزمان المختلفة. ولا يقدر على هذه الإحاطة الشاملة إلا الله تعالى العليم الخبير، المحيط بكل شيء.

*فهم وتدبر نصوص الوحي التي كشفت عن سنن الله الشاملة المحيطة بكل الظواهر الاجتماعية والتاريخية والطبيعية بأسلوب بديع وبيان رائع، حيث نرى حشد معاني كثيفة في عبارات مركزة جامعة، مما يوحى بالإعجاز على مستوى اللفظ والمعنى معا.

*تحديد موقع الإنسان في هذا الوجود ودوره وقيمه بين مكوناته.

*رد كل حادثة وكل ظاهرة إلى سببها الطبيعي الشرعي.

*إبراز حكمة الله تعالى من وراء خلق هذا الوجود، وجدية الحياة وخلوها من العبث، وثبات سننها وصرامتها واطرادها. فهي ماضية في جميع الأمم والدول، لا تستطيع أمة أن تفلت من سلطانها أو تستثنى منها دولة.

*تفسير حركة المجتمعات الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل تفسيراً صحيحاً.

ولهذا ينبغي:

١- إعادة تقويم الدراسات (الاجتماعية والتاريخية والنفسية) في ضوء علم السنن، انطلاقاً من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

٢- إبراز هذه السنن أمام مجتمعات المسلمين، وتضمينها الخطاب الدعوى الموجه لهم، لأنه لا يمكن تسخير دخائر الكون والإفادة منها، وتصويب فعل عقل المجتمع، إلا وفق السنن.

٣- الاستفادة منها في رسم برامج التغيير والإصلاح، وأخذها بعين الاعتبار والسير وفقها.

٤- التركيز في معارفنا العامة على الدراسات التاريخية والنفسية والاجتماعية والتربوية، وهي علوم مساعدة تمكننا من استجلاء وكشف أكبر عدد ممكن من سنن الله في الأنفس والمجتمعات وتوظيفها في التنمية على كافة الصعد.

٥- بلورة مناهج للعمل في المؤسسات الإسلامية تتناسب مع نظام السنن في أساليبها

وأدواتها.

٦-تربية الناشئة (تلاميذ وطلاب) على التفكير السني ليتعودوا على التفكير العلمي الموضوعي، فيميزوا بين المقدمات والنتائج ويروا سلسلة التغيرات المتصلة بينها، ويرصدوا الظواهر الاجتماعية في نشأتها وتطورها، مما يجعل أحكامهم أقرب للواقع والموضوعية.

٧-إجراء تقييم سني للأحداث الكبرى في التاريخ الإنساني وفي تاريخنا الإسلامي والمعالم البارزة في واقعنا المعاش، بناء على السنن الواردة في القرآن الكريم، لتفاعل النظرية مع التطبيق.

٨-القيام بدراسات علمية مستقبلية تعتمد على ما فقهناه من سنن الله في حركة المفرد والمجتمع.

والله تعالى موفق والهادي إلى السبيل.

فهرس المصادر والمراجع

- ابن الأثير المؤرخ، علي بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).
 - الكامل في التاريخ.
 - الألباني، ناصر
 - سلسلة الأحاديث الصحيحة، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
 - البخاري (الإمام)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م).
 - لجامع الصحيح، استانبول: مؤسسة إليف أوفست، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- بافلشاك، مارك
 - التماثل والإذعان، ضمن كتاب علم النفس الاجتماعي، نشر سيرج موسكوفيسي، باريس، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م (باللغة الفرنسية).
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م)
 - جامع الرسائل والمسائل، تحقيق محمد رشاد سالم، القاهرة: مطبعة المدني، ؟.
 - مجموع الفتاوى، طبع تحت إشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، مكة المكرمة، ؟.
- جرجين، كنيث
 - علم النفس الاجتماعي، ترجمه من الإنجليزية إلى الفرنسية سلفي جوتراس، الناشر: الدراسات الحية، سان لوران، كيبك، كندا، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه (ت ٤٠٥هـ/١٠١٤م)
 - المستدرک علی الصحیحین، تحقیق یوسف المرعشی، بیروت: دار الفکر، ؟.
- خليل عماد الدين
 - التفسير الإسلامي للتاريخ، بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- رضا رشيد
 - تفسير المنار، بيروت: دار المعرفة، ؟.
- زيدان عبد الكريم
 - السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، بغداد: مكتبة المثنى، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
- سعيد، جودت
- حتى يغيروا ما بأنفسهم، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- السلمي، محمد بن صامل
- كيف نفسر التاريخ؟ مجلة البيان، عدد ٥٠، شوال ١٤١٢هـ/ أبريل ١٩٩٢م.
- الصدر، محمد باقر
- السنن التاريخية في القرآن الكريم، أعاد صياغة عباراته وترتيب أفكاره محمد جعفر شمس الدين، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر
- تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ؟.
- قرقر، محمد
- التدافع الحضاري بديلا عن الصراع، مجلة المنار الجديدة، عدد ١٧، شوال ١٤٢٢هـ/ يناير ٢٠٠٢م.
- قطب، سيد
- في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م).
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الفكر، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
- كاريل، ألكسيس
- الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، بيروت: مؤسسة المعارف، ؟.
- كنعان، أحمد
- أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، كتاب الأمة، عدد ٢٦، الدوحة، قطر، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م)
- السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، ؟.

- المصري، محمد عبد الهادي
 - أهل السنة والجماعة: الانطلاقة الكبرى، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري المصري (ت ٧١١هـ/١٣١١م)
 - لسان العرب، إعداد يوسف خياط، بيروت: دار لسان العرب، ؟.
- الوزير، إبراهيم
 - دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.